

المشكلات

٤ - اللغة العربية

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفنا في تعليمها ؟ - كيف نعلمها ؟

في الأمثال العربية - قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضا عالها - ومعنى ذلك أن من سلك أرضا وكان جاهلاً بطرقها ضل وهلك ، ومن سلك أرضاً وكان عالماً بمسالكها قطعها ونجا منها . وهذا لا يختص بالأرض والمسافر ، بل يعم كل من يزاول أمراً من الأمور ، فإن زاوله عالماً به تغلب عليه ، وإن زاوله عن جهل خاب فيه

للعلم سلطانه الفاهر ، والمتسلح به متسلح بسلاح الظفر ، وللجهل عثراته الموبقة ، والمتسلح به متسلح بسلاح مقلوب . إن الأمم التي تحل مشاكلها مستضيئة بنور العلم تنجح فيما تحاول ، وتغلب على الصعاب التي تعترضها ، والأمم التي لا تستهدي العلم ولا تستشير في مشكلاتها ، لا تكاد تحل لها مشكلة

وما الفرق بين الأمم المتحضرة والأقوام المهج ، إلا أن الأولى آمنت بالعلم وبسيطرته على الوجود ، فسعت للكشف والمعرفة ، وكلما علت شيئاً استفادت منه في حياتها ، وأن الثانية لا تؤمن هذا الإيمان بالعلم ، ولا تعترف له بهذه القدرة ، فهي

اللحظة من الصمت الرهيب ، يقبل رجل كافر لا دين له من أغنياء المدينة ، مختالاً في ملابسه الزاهية ، حاملاً كيساً كبيراً فيه جواهره ونقوده ، حتى إذا وصل إلى حرم القديس ألقى محله عند قدي التمثال وسأله في تأدب واحتشام أن يحرسه له حتى يشوب من سفره ... لكن لصوصاً يسرقون ثروة الرجل ... ويعود الكافر فلا يجدها ... ويحين جنونه لهذا السبب ، ثم يتناول سوطاً فيلعب به ككتفي القديس الذي ينزل من مقامه في تودة ووقار على الرغم من السياط التي تمزق جلده ويذهب نحو اللصوص فيخاطبهم ويعظمهم وما يزال بهم حتى يردوا كيس الرجل ... ويعود القديس إلى مجلسه ويترجع عليه ، فيخبر الكافر نادماً ... ويؤمن من فوره .

(ينبع)

ومرني هبنة

تحل مشاكلها بما يأتيها به عفو الخاطر ، فتعثر دائماً ويلج بها العثار وخير علاج ما يكون مبنياً على طبائع الأشياء ، فأول ما يبدأ به معرفة طبيعة الشيء ، ثم يعالج على حسب هذه الطبيعة وبنور هذه المعرفة

وعلى هذا نغير ما يعمل لحل مشكلة اللغة العربية أن نعرف طبيعتها ومن أي جنس هي ، وما خصائص هذا الجنس ، وقد أدركت ذلك واقتنعت به ، وزيد أن تقنع به القراء

قضيتان إن آمنتم بهما سلمت معنا بما نريد : إحداهما أن اللغة في المتكلمين بها ملكة . ثانيتهما أن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار لا بالقواعد فحسب

إذا استطعت أن أقيم الدليل على هاتين القضيتين وصدقتم بهما وجب أن تصدقوا أن اللغة لا تكتسب بالقواعد فحسب ، بل بالتكرار والحفظ والحاذة ، وسأحاول ذلك فيما يأتي :

اللغة : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والتعبير باللغة والفهم عنها يقتضي أمرين :

١ - السرعة : فكلمة خطر بباله معنى خطر اللفظ الدال على مفرداته ، وخطر التركيب الدال عليه في وحاء ، وكلما سمع جملة فهم معاني ألفاظها وما يدل عليه التركيب

٢ - الإجابة : وذلك بأن يكون جاريًا على قوانين هذه اللغة لا يخطئ فيها ، وذلك لا يكفي فيه أن تكون اللغة معلومة فحسب ، بل لا بد أن تكون ملكة ، أي حالة راسخة في النفس ، لأنها إذا كانت معلومة علماً ساذجاً ولم تصر ملكة ، وأراد المتكلم التعبير عن معنى ، ففكر وروى في اللفظ الذي يدل على ذلك المعنى ، واستعرض الألفاظ الخزونة في حافظته حتى يعثر به ، ثم فكر فيما يعلمه من تراكيب هذه اللغة ليختار التركيب الذي يفيد ذلك المعنى ، ووضع اللفظ في هذا التركيب ، وأعطاه الأحوال المناسبة ، وذلك يقتضي جهداً وزمناً ، وربما ينتضي بياض النهار وسواد الليل في تبيين أو ثلاثة ، ما دامت اللغة علماً ساذجاً . أما إذا عمقت إلى أن صارت ملكة ، فانه إذا أراد التعبير عن معنى انثالت عليه الألفاظ ، وانثالت عليه التراكيب دون جهد ومشقة ، سريعاً لا يبطل ، مصيباً لا يخطئ .

وقياس ذلك قياس العامل الذي يصف الحروف للطبع ، فانه إذا كان مبتدئاً واقتصر على العلم بإمكانة الحروف ، وأراد بعد هذا العلم الساذج أن يصف حروف كلمة اقتضاء ذلك من

ولولا الملكات لما قتنا بهذه الأعمال وسواها إلا مع الخرق والإبطاء كما أريناك في صفات الحروف الذي لم يكتسب ملكة في صنعتها . وإن الزمان لأسرع من أن يظن بنا ، وحاج الحياة شديدة الإلحاح تتطلب السرعة والإجادة ، وإن قوة المرء محدودة لا تقي للعمل بدون ملكة لأن ما كان من الأعمال كذلك يقتضى من المرء جهداً ومشقة وتفكيراً تستنفد من قوته ومن دمه وأعصابه ما هو بحاجة إليه

وإنها لحكمة من الله عظيمة أن يخلق فينا الملكات فتجعلنا نجيب مطالب الحياة المتعددة بأقل ما يكون من الزمن ، وأيسر ما يكون من الجهد ، وأسرع ما يكون من العمل ، لا سيما حاجة التخاطب . فأنه أرحم بعباده من أن يقف التخاطب على هذه الجهود المضيئة ، والمتاهب الشاقة ، والتخاطب عمل دائم ، لا تنفص من حاجة حتى تتجدد حاج ، ولا يفرغ المرء من خطاب حتى يستأنف خطاباً آخر ، ولا يفرغ من فهم خطاب إلا إلى فهم مخاطبات أخرى وهم جرا ...

لقد قلنا الآن ما يمكن قوله في أن اللغات في الناس ملكات يقتدرون بها على الإفهام والفهم ، وأظن أن القراء آمنوا بذلك لما أوردته من الأدلة

وقد بقي أن أقول في القضية الأخرى وهي أن الملكة لا تكتسب بقواعد وإنما تكتسب بالمزاولة والتكرار

إذا استقرت الملكات ولاحظت كيف تتكون علمت أن الملكة لا تكتسب إلا بالدأب والمراة وتكرار العمل لا بالقوانين والعلم المجرد . لاحظ صناعة صف حروف الطباعة تجد أن العامل إنما يكتسبها بمزاولة صف الحروف والنقاط الحرف من مكانه المخصص له وتكرار ذلك حتى تكتسب الملكة ، وليس يكسبها بالعلم المجرد بأن من أراد صف كلمة فليأخذ حروفها المتعددة من أماكنها المخصصة لها وهكذا فإذا أتم صفحة وضعها بين ضاعطين لينماها من الشتات والانقراط

لاحظ صناعة الموسيقى تجد أنها لا تكتسب بقوانينها الفنية لحسب ، فلا تكتسب بقول الأستاذ اضرب بالخنصر والبصير والسبابة وشد الأوتار ؛ إنه بذلك لا يكون عازفاً ولا موسيقياً إنما يكون موسيقياً إذا زاول هذا الضرب مراراً وتكراراً ، فأكسب أصابعه المرونة والسرعة والاستجابة لما رسمه في وحا ، ثم أكسب نفسه وذوقه بذلك الملكة في الموسيقى وفنها الجميل

التفكير والجهد والزمن ما ليس بالقليل ، وربما انقضى اليوم ولم يصف إلا بضع كلمات

أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار ملكة ، فانك ترى يده تلتقط الحروف من هنا ومن هنا ، وفكره يسبق يده ، ويده تسبق فكره ، حتى يصف في الدقيقة عدة كلمات

وهذا شأن الملكات كلها تأتي بالشيء في مجلة وإتقان ، وتريك العجب العجيب ، ترى الأمر الذي له أجزاء كثيرة ويحتاج إلى فكر في هذه الأجزاء يأتي به صاحب الملكة دون فكر كأنما هو ساحر يأتي بالخوارق

وآني صديق أبي ، كان قد بدأ في تعلم القراءة والكتابة أقرأ ، فهالته السرعة والإصابة ، فقال أنظني أصدقك في أنك تقرأ من هذا الكتاب ؟ لا ، إنك تقرأ من حفظك . أجبني أنا حتى أصدق أنك تقرأ ما لا تحفظ ؟ أفى هذه السرعة تعلم ما هذا الحرف وما الذي يليه وهكذا وتعلم حالته أفتتوح أم مضموم أم مكسور أم ساكن ، وإن تركيب ذلك يكون كذا ؟ وهبك عرفت . هذه الكلمة فكيف تعرف صاحبها بهذه السرعة ، وكيف تجمع من الحروف كلمات ومن الكلمات جملاً ، منطلقاً كالسهم ، مصيباً كالقضاء ؟

وهذا تفكير سليم لو أغفلنا من حسابنا أمر الملكات ، ولكن الملكات كائنات من كائنات هذا الوجود ، ولها هذا الفعل الغريب ، والسحر العجيب . إن النجار الذي اكتسب ملكة النجارة يأتي بأعمال أشد إتقاناً وأسرع ممن لم يكتسب ملكة النجارة . إنه يدق السمار بالقدوم مائة مرة ، فلا تحجب منها مرة ، حتى أن صاحبه ليمسك له السمار وهو يدق آمناً أن تقلت منه ضربة فتصيب يده ، ومن لم تكن عنده ملكة النجارة يدق مائة مرة فلا تصيب رأس السمار منها واحدة

وإن المرء ليمجب للحائك كيف يسلك الخيوط في الخيوط المشدودة بحركة سريعة وإتقان عجيب لا يدخل الخيط في غير موضعه المراد له ، ولا يعقد ولا يقطع . وإن الملكة لتدخل في أغلب أعمالنا فتجعلها أعظم إتقاناً وأسرع ، وتجعلنا تأتي من الأعمال ما نحتاج إلى آلاف السنين لنعمله لو لم تكن عندنا هذه الملكات . فبالملكة نكتب ونقرأ ونتكلم ونحسب ونعمل في الصناعات المختلفة من حياكة وخياطة ونجارة وحدادة وطباعة مع الإسراع والإجادة والإحسان